الجـدّة وأحـفـادها

قامة قصيرة، منتصبة كالرمح، ووجه مجعّد عملت فيه السنون و الهموم عملها، فحفرت فيه الحفر، و شقّت فيه الشّقوق و فلحته طولا و عرضا، فنتأت عظام الوجه، و غار الخدّان و تقلّص الجلد و جفّ.

إلاّ أنّ الأيّام لم تنل منها مع ذلك إلاّ بمقدار، فجذوة العينين لا تزال متّقدة تنبئ بالعزيمة، و ابتسامتها لا تزال حلوة تنتعش فيها فجأة خطوط الوجه، و تهشّ أساريره.

انّك تراها أحيانا في الطريق بين ولدين، بيمينها يد أحدهما و بشمالها يد الآخر. إنّها تسير بهما في نزهة، و كلّها أعين يقظة، تحذر السيارات، و هي تجوب الشّوارع صاعدة نازلة ، و تحذر المارة، و قد ضاقت بهم السبل، و تحذر طفليها و هما يموجان بين يديها، هذا يريد انفلاتا من قبضتها ليسعى وراء ما يعنّ له، و ذلك يتلفّت إلى مشهد يستهويه، فليس له من نظر إلاّ إليه.

ها هي ذي قد وقفت لحظة على الرّصيف تحاول أن تعبر الشارع العريض بحفيديها : انظر إليها كيف تلقي إلى كل الجهات نظرات متتابعة خائفة. فنظرة عجلى إلى اليمين، و نظرة عجلى إلى اليسار، و أخرى إلى الأمام حتى إذا وجدت غفلة من السيارات، جذبت الطفلين و اندفعت بهما تقفز قفزا.

و تراها أحيانا تقود عجلة صغيرة فيها طفل في الثانية من عمره يجيل أنظارَ تعجّبٍ في كل ما يَعرضُ له من مشاهد. فكل شيء لديه جديد إلاّ تلك التي تقود به العجلة، فهي له صديقة قديمة يعرفها منذ بدأ يعرف، و يطرب لصوتها، و يأنس بابتسامتها . وهو عندما يتعب من النظر إلى الأشياء التي حوله، يسدّد إليها عينيه و يبتسم فتفهم ما تقوله عيناه و ابتساماته : فهو يشكرها لأنّها تقود به العجلة كل يوم في مثل هذه النّزهات الجميلة.

إنّك لا تراها قط وحدها فكأنّها خلقت للأولاد وكأن حياتها كلها وقف عليهم.

جرجس الماردیني

www.madrassatii.com

الشرح

1- تقلص الجلد: أي انكمش

2- جذوة العينين لا تزال متقدة : الجذوة هي الجمرة الملتهبة . و جذوة العينين أي بريقهما فقد ظهرت علامات الكبر على وجه الجدة لكن نور عينيها بقي مشعّا، يدلّ على قوة عزيمتهما .

3- تنتعش خطوط الوجه و تهشّ أساريره: انتعش أي نشط و أشرق بعد ذبول، و هشّ :أي انبسط و انشرح : عندما تبتسم الجدة يشرق وجهه و تنبسط تجاعيده.

4- تسير و كلها أعين يقظة : أي تمشي في الطريق شديدة الحذر و الانتباه لتتجنب حوادث المرور.

5- يسعى وراء ما يعنّ له : عَنَّ له الأمر أي ظهر له و اعترضه (وخطر بباله) و المعنى : يحاول الطفل الإفلات من قبضة جدّته ليجري في الطريق و يلعب كما يشتهي و يريد.

6- مشهد يستهويه : منظر يعجبهُ و يشغل باله و يُلفتُ نظرَه لحسنِه و جماله.

7- كأنَّ حياتها وقْفٌ عليهم : يقال وَقَفَ حياته على الشّيء : أي حبسها عليه، فلا يفعل سواه. و الجدّة تهتمّ دوما بشؤون أحفادها و تعتني بأمورهم فكأنّها لا تحيا إلا لخدمتهم.

www.madrassatii.com